جدلية العلاقة بين العقل والنقل عند عبد الباري الندوي

بقلم
أ/ باي أحمد عامر(*)

ملخص

يهدف هذا المقال إلى معالجة إشكالية العلاقة بين العقل والنقل، التي كانت وما تزال محل تجاذب وخلاف واسع بين المفكرين والفلاسفة، وممّن تناول الموضوع بالدراسة الشيخ عبد الباري الندوي استجابةً لتحديات عصره، بالوقوف بحزمٍ أمام التيارات الوافدة من باب العقلانية والافتتان بالنتائج العلمية العملاقة في القرنين الماضيين، كما عارض الانسياق وراء التيارات الفلسفية المختلفة التي أقحمت العقل في المجال الميتافيزيقي.

ومقالي هذا يسلط الضوء على جهده في تحديد العلاقة بين العقل والنقل، والمجالات المعرفية لكليهما، فقد استطاع الندوي أن يوضح وهم الصراع بين العلم والدين، ويبين طبيعة العلاقة بين المذاهب الفلسفية والكلامية المختلفة والدين، ليخلص في الأخير إلى تحديد طبيعة علاقة العقل بالنقل، والمجال المعرفي لكل منهما.

الكلمات المفتاحية: العقل – النقل – الدين – الفلسفة – العلم – علم الكلام.

مقدمة

كانت العلاقة بين العقل والنقل وما تزال محل تجاذب وخلاف واسع بين المفكرين والفلاسفة، ويزيد من بروز هذا النقاش جملة من المؤثرات المختلفة من حياة الإنسان الحضارية، فكلما استطاع الإنسان أن يحقق قفزات نوعية في المجال العلمي انطلاقاً مما يراه جهودا عقلية، أعلن استقلاله الكلي أو الجزئي عن الدين وكل متعلقاته، باعتبارها عقائد وأفكار تتناقض مع العقل، وظهرت صور للإلحاد القديم المتجدد، تحاول باسم العلم أن تجد مبررات للتمرد عن

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم أصول الدين ـ معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي.
beyahmed711@gmail.com

مسلمات الدين وعن كل ما يقدمه، والموضوع أيضاً محل خلاف حتى بين أتباع الدين أَنفُسِهِم، من حيث الحدود المرسومة لكل من العقل والنقل ومجالاتهما المعرفية، وتراتبية العلاقة، والتأثير المتبادل بينهما.

وممن خاض غمار هذا البحر الشيخ عبد الباري الندوي[1]؛ الذي وقف بحزم أمام التيارات الهدامة للدين، من باب العقلانية والافتتان بالقفزات والنتائج العلمية العملاقة، والتيارات الفلسفية المختلفة، فانطَلَقَ بقدمٍ راسخةٍ في معرفة الفلسفة القديمة والحديثة، وعمقٍ اطلاعه على الجهود الكلامية للعلماء المسلمين[2]، ليحدد طبيعة العلاقة بين العقل والنقل، والمجالات المعرفية لكليهما، وسعى إلى إزالة جوانب من توهم الصراع بينهما.

إن هذا المقال يحاول إبراز رؤيته في تناول هذه المسألة الحساسة، التي كانت وما تزال محل جدل، سيما مع ظهور موجة من الإلحاد الجديد، خاصةً بين صفوف الشباب، فإلى أي مدى وفق الشيخ عبد الباري الندوي في تبيين طبيعة العلاقة بين العقل والنقل؟ وما الحدود التي يرى أنها تضبط كلاً منهما؟

بدايةً نتعرض بإيجاز لمفهوم العقل والنقل كتمهيد نظري، نتناول بعدها جزئيات الموضوع، وما يجيب عن إشكاليته.

أولا. مفهوم العقل والنقل:

العقل في اللغة يأتي بمعان، فهو الحَبسُ، إذ يحبسُ عن ذميم القول والفعل؛ وهو الحِجْرُ والنهي[3]؛ والعقل نقيض الجهل، يقال عقلَ يعقلُ عقلاً، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو أنزجر عما كان يفعله، ورجل عاقل إذا كان حَسَنُ الفهم[4]، وهو المعنى في قوله تعالى:﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[5]، أي أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم لله تعالى التي تأمرون الناس بخلافها[6]. وقد وردت مادة "عقل" في القرآن الكريم بصيغ واشتقاقات لغوية مختلفة تسعا وأربعين مرةً، جُلها بصيغة المضارع[7]، مما يُبرِزُ ويُؤكِدُ أهمية ومكانة العقل والتعقل في الدين الإسلامي.

أما النقل في اللغة فهو: يدل على تحويل شيءٍ من مكان إلى مكان[8].

أما تعريف العقل في الاصطلاح: فهو "تلك المعلومات الضرورية الفطرية في الإنسان التي تكون أساساً لكل نظرٍ واستدلال"[9]، وقيل:"العقل هو العلم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، ومجاري العادات"[10]، وما يصدر عن العقل يسمى العلوم العقلية، وهي ما تقضي

بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع، حيث تنقسم إلى: علوم ضرورية لا يُدرَي من أين وكيف حصل في الوعي، كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين؛ وإلى علوم مكتسبة وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال، وكلاهما يسمى عقلاً[11].

أما النقل في الاصطلاح: فهو "التعاليم الدينية التي مصدرها الله تعالى، ومبلغها إلى الناس النبي المرسلُ"، فالنقل بالنسبة لنا كمسلمين: هو "التعاليم التي جاء بها محمد ﷺ مبلغا إياها عن ربه منضبطة في النص القرآني، ونصوص الحديث النبوي الشريف"[12].

ثانيا. الدين والعلوم العقلية:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي[13] أن الدين عبارة عن الاعتقاد بأمور تتعلق بما فوق الفطرة وخالقها، ومَصدَرُهُ الأساسي هو التلقي عن طريق النبوة، أما العقليات فهي محاولة العقل البشري البحث عن الحقائق، ويقسم الندوي العلوم العقلية إلى مجالين؛ العلم والفلسفة، فالعلم مرتبط بالطبيعة وما تعلق بها، أما الفلسفة فمجالها ما وراء الطبيعيات.

الجدير بالتنبيه أن الندوي في دراسته لطبيعة العلاقة بين العقل والنقل، اتبع منهجية قائمة على معيار تقسيم الجهد العقلي، حيث تناول الموضوع ابتداء بعلاقة الدين بالعلم، ثم علاقته بالفلسفة، هذا من الجانب الموضوعي، أما من الجانب الشكلي فَنَجِدُ في أسلوب تدوينه كثيرا ما يُعَبِرُ عن النقل بالدين، والعقل بِصِنفَيّ العلوم العقلية؛ العلم والفلسفة[14].

وانسجاماً مع أسلوبه سنعرض ابتداء علاقة الدين بالعلم، ثم علاقة الدين بالفلسفة، ونتلوها بوجهة نظره حول علم الكلام باعتباره جهداً عقليا في إطار النص، ونخلص إلى ما توصل إليه من تحديد لمجال صلاحية العقل للنظر في أقسام الدين.

ثالثا. علاقة العلم بالدين:

يؤكد الندوي أن تصور وجود صراع بين العلم والدين نابع عن الجهل بحقيقة الدين والعلم، وأن هذه القصة قديمة ومستمرة، فالتقدم الذي أحدثه الإنسان خلال القرنين الماضيين حمل بعض الناس على الاعتقاد أن الدين والإله قد مني بهزيمة فاصلة، وأن العلماء بما قاموا به من فتوحات علمية حيرت الألباب والعقول، قد أزاحوا الخالق جانباً بعد شُكرِهِ على خدماته المؤقتة، فما حصل من تطور علمي رهيب خاصة بعد الحربين العالميتين، جعل الميزان العقلي للناس يختل، وأصبحوا يصدقون كل ما هو صادر عن الغرب، ولو كان قولاً بتجاوز الإله وما يصلنا من تشريعات سماوية، فيكفي في كل مسألة أن تنسبها لأوروبا حتى تصبح رمزاً للحضارة والرقي

والتفكير العلمي الرصين[15].

ويوضح الندوي أن الأسباب التي أدت إلى توهم وجود صراع بين العلم والدين، هي النقاط الآتية:

1- إن المصدر الرئيسي لسوء الفهم حصل بسبب عداء الكنيسة لكثير من رجال العلم الغربيين، وما تعرضوا له من تقتيل وسجن وتعذيب قَادَتهُ محاكم التفتيش الأوروبية[16]، فانتقل تَصَورُ حقيقة الصراع التي كانت بين رجال الدين والعلم، إلى حُكمٍ خاطئ بوجود صراع بين الدين والعلم.

2- إدلاءُ عدد من العلماء والمفكرين والفلاسفة بتصريحات جعلت كثيرا من الناس، وحتى الخاصة منهم يقعون ضحية سوء الفهم والتصور هذا، مفادها أن العداء بين الدين والعلم قائم على أسس متينة، من أمثال: لابلاس، وتندل، وهكسلي، وكمثال على ذلك ما صرح به هكسلي بأن "المادة وقوانين المادة قد أبطلتا عقيدة الخلق ووجود الروح"[17]. وقول هيجل: "إنني أستطيع أن أخلق الإنسان لو توفر لي الماء، والمواد الكيميائية، والوقت"، وما قاله نيتشه في صراحة: "لقد مات الإله، الآن"[18]، هذه التصريحات ومثيلاتها أحدثت لدى الجاهلين بحقيقة العلم، وسَاوسَ حول الدين، وزادت من شكوك المضطربين.

3- الموقف الساذج لبعض أصدقاء الدين من المتكلمين، الذين لم يفكروا بأنه لا صراع حقيقي بين الدين والعلوم العقلية، بل شرعوا في التوفيق بينهما أحياناً، أو الرد على كل ما هو صادرٌ عن الفلسفة والحكمة أحيانا أخرى، انطلاقا من اعتبارهِ واجبا دينيا ضروريا لحماية الدين والذودِ عنه، في حين أن الشعور بالخِّصَامِ بين الدين والعقل كان وليد علم الكلام نفسه، الذي كان سببا في إتلاف الصلاحيات والكفاءات الهائلة للفكر والعقل في مسائل غير حيوية، فكانت جهودهم كالرسم على الماء أو التحليق في الهواء[19]. ورأي الندوي هذا لا يُسَلَمُ به، وسأتناوله بالتفصيل والتدقيق عند عرض نظرته لعلم الكلام.

رابعا. لا صدام بين العلم والدين:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي أن الصراع بين العلم والدين لا أساس له، ولفهمٍ دقيق لتَصَوُّرِ مَسأَلَةِ الفَصلِ التام بين الدين والعلم، وضّح الأمر بمثال؛ أن القطار في سيره واردٌ ومألوفٌ أن يصطدم بقطار آخر، لكن من المستحيل أن يصطدم قطار بباخرة، لأن القطار لا يستطيع أن يبحر في الماء، ولا الباخرة تستطيع السير في البر، وهذا تماما ما هو حاصل بين العلم

والدين، فدخول العلم في مجال الدين مستحيل لأن العلم ينتهي حيث يبدأ الدين، فآخر حَدٍ للعلوم يشكل بداية حدود الدين، فالعلم مرتبط في بحوثه واكتشافاته بالطبيعة عن طريق المشاهدة والتجربة.

أما الدين فإن مصدره وقوامه ما فوق الطبيعة، وهي غير قابلة للمشاهدة والتجربة، كالمباحث المتعلقة بالله تعالى، والروح، والبعث والحشر وغيرها.

العلم الطبيعي بحسب الندوي ينطلق من المشاهدة إلى التجربة، ليصل إلى الارتباطات بين الأسباب والمسببات، وإلى معرفة العلاقة بين الظواهر المختلفة، ثم للعِلمِ أن يجد ارتباط هذا القانون بغيره، حتى الوصول إلى قوانين كبرى، تماما كما كانت مشاهدة نيوتن لسقوط التفاحة، قائدة لاكتشاف قانون الجاذبية مثلاً، فالعِلمُ يستطيع أن يجيبنا بكل آثارِ وارتباطات هذا القانون، لكنه لم يجبنا إلى الآن ما هو قانون الجاذبية في حد ذاته؟ وكيف وجد؟ وهل هو أزلي أم مخلوق؟ فالأسئلة من هذا القبيل تحير العلماء وتعجز ألسنتهم عن الإجابة؛ لأنها خارجة عن دائرة البحث، فقد عبر نيوتن عن ذلك بصراحة، بأنه لا يمكن أن تأتي كل هذه الظواهر الطبيعية العظيمة للوجود دون إرادة واجب الوجود، القادر المطلق، المتصف بكل صفات الكمال[20].

ثم يعضد الشيخ عبد الباري الندوي موقفه بجملة من الأقوال لبعض العلماء والفلاسفة التي تؤيد ما ذهب إليه، من أن العلم يستطيع أن يكشف أسرار العلل الثانوية والقريبة، ويشرح ويفسر أحداث العالم شرحا جانبيا، أما الكشف عن العلل الأولى فإنه خارج عن نطاق بحث العلم كليا، فلا يستطيع العلم تعليل وشرح كل شيء، وأعلى ما يصل إليه علم الإنسان، لا يتجاوز في معرضِ التعليل باتجاه بداية الأمور إلا خطواتٍ معدودةٍ، فيكون أي جهد للعلم في خوض غمار إثبات أو إبطال وجود الله جهلا بحقيقة العلم وحُدُودِهِ[21].

ومواصلة لما ذكره يوضح أن علماء الفلك يستطيعون أن يناقشوا قانون الجاذبية والحركة، ويستطيع علماء الرياضيات أن يكشفوا العلائق بين الأعداد والمكان، لكن هل في استطاعتهم أن يفهمونا الحقيقة الأصلية للمكان؟ إنهم لا يعرفون حتى كون هذه الكائنات ذهنية أو خارجية، ويستطيع علماء الأحياء معرفة تركيب الأجسام من العناصر الكيماوية، لكن هل يجيبوننا كيف ولماذا تتولد من تركيب تلك العناصر الحياة والأحاسيس والمشاعر؟

إن الإنسان لا يملك بكل ما حظي من نور العلم والحكمة حسب الندوي أن يزيح ظلماتِ جَهَالَتِهِ بهذه الأمور حتى القدرَ اليسيرَ، وهو يحتاج إلى الدين ليهديه ويرشده بمشعل العقيدة

والإيمان بالغيب في هذه الظُلمةِ الحالكةِ، فَلَمَعَانُ العقل والحكمة لا يقدرُ على تبديد تلك الظلمة الكثيفة[22]، وهو ما يؤكدهُ بشكل جلي الإمام أبو حامد الغزالي في المنقذ من الضلال حين قال: أن لا شيء يثبت أن العقل هو آخر المدارك، وأن ليس فوقه طوراً وإدراكاً آخر، كالنبوة التي تَنفَتِحُ فيها عينٌ يُدرَكُ بها مُدرَكَاتٍ خاصةٍ، والعقل معزولا عن إدراكها كعزلة السمع عن إدراك الألوان، وعزلة البصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات، والله تعالى قَرَّبَ لنا هذا المفهوم، بأن أعطى الناس خاصية من نموذج النبوة في النوم[23]، حيث يحصل أن يُدرِكَ الإنسان في الرؤيا بعض الغيب، فيتحقق الإدراك دون حاسة.

والعلم الحديث من جانب آخر يثبتُ بما لا يدع مجلا للشك عن وجود العديد من طرق الإدراك يملكها الحيوان ولا يملكها الإنسان، مما جعل المسألة تغدوا حقيقة لا مراء فيها.

والخلاصة أن الشيخ عبد الباري الندوي يرى أنه لا مجال لتصادم العلم بالدين، لأن سيرهما في مجالين مختلفين تماما، وإن كان من احتمال لأيٍّ تضاد أو توافقٍ فهو بين الدين والفلسفة لأسباب سنأتي على تفصيلها تاليا.

خامسا. علاقة الفلسفة بالدين:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي أن فطرة الإنسان تقوده للبحث والتنقيب، وخاصة عن الأسئلة المحورية في الحياة، كيف بدأ العالم وكيف ينتهي؟ وما حقيقة الوجود؟ ومن نحن؟ ومن أين أتينا؟ وإلى أين المصير؟ وأسئلة كثير أخرى في مجال خارج عن دائرة العلم كليا، هو مجال ما بعد الطبيعة، فتنقلنا تلك الأسئلة من حظيرة العلم إلى الإطار غير المحدود للفلسفة، ومن بديهيات العلوم الطبيعية إلى عالم من الظن والتخمين والإدعاءات غير القطعية[24]، مما يولد اصطداما في بعض المسائل بين الدين والفلسفة، فيتطلب الأمر توضيحا وتصحيحا للعلاقة القائمة بينهما، بإزالة سوء الفهم المؤدي إلى زوال وقوع الصدام بينهما كليا، ولكي يتم الأمر يشير الندوي إلى ضرورة اعتبار المسائل الآتية:

1- يمكن القول أن هدف الدين والفلسفة واحد، لكنهما يختلفان كليا في طريقهما، فالدين قائم على الإيمان والعقيدة، أما الفلسفة فهي قائمة على أساس القياس والاحتجاج العقلي، وكلما سمح للقياس العقلي بالتسرب للدين، فقد الدين قوته وحقيقته وتحول إلى فلسفة.

2- إن الصدام الممكن بين الفلسفة والدين ناتجٌ عن الاعتقاد الخاطئ بأن القياسات الفلسفية أو الدلائل العقلية تستطيع أن تبطل الدين أو تثبته نهائيا، فالفلسفة متناقضة ومتعارضة بحيث لا

يمكنها أن تكون معيارا لحقٍ أو بناءً لحكمٍ، ويبقى الجهد الفلسفي محاولة لإرواء شغف الإنسان بالبحث عن تساؤلات في أرض لا مجال لإعمال العقل فيها.

3- أن تاريخ الفلسفة الطويل الممتد إلى ألفين وخمس مئة سنة، لا نرى فيه من حيث الواقع أنها كانت منافسة للدين أو معاندة له، يقول فرنسيس بيكون: "قليل من الفلسفة يؤدي للإلحاد والتعمق فيها يؤدي للإيمان"" فإذا أمعن العقل النظر، وشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها، فإنه لا يجد بداً من التسليم بالله"[25].

إن بيان العلاقة بين الدين والفلسفة لا يتأتى إجمالاً، نظراً لتعدد المذاهب الفلسفية وتنوع أرائها، وفيما يأتي نعرض تقسيم الندوي لأهم المذاهب الفلسفية، ومناقشته لها، وتوضيح طبيعة العلاقة بينهما.

سادسا. المذاهب الفلسفية وعلاقتها بالدين:

يقسم الندوي المذاهب الفلسفية إلى أربعة مذاهب أساسية، وهي: الثنوية، والتصورية أو المثالية، والمادية، والارتيابية أو اللاأدرية، ويرى أن المذهبين الأولين مؤيدان للدين بشكل مباشر أو غير مباشر، والمذهب الثالث له موقف معاند، أما المذهب الرابع فموقفه حائر بين الأمرين، ولتحرير موقف كل مذهب نلخص ما ذكره الندوي في التفصيل الآتي:

1- المذهب الثنوي:

وهو مذهب يقسم الكون إلى كائنين مختلفين ومتعارضين كليا، وهما الجسم والروح، فالجسم هو المادة الخالية من الحس والحركة، أما الروح فهي مجردة عن الجسم ومصدر للعقل والشعور، وهو مذهب كثير من الفلاسفة المتقدمين كأرسطو، والفلاسفة المتأخرين كديكارت، ومؤدى هذا المذهب حسب الندوي يتفق تماما مع الدين، فالروح هي في الواقع أساس الدين، وكل الأمور الغيبية الأخرى متفرعة عن هذه العقيدة[26].

2- المذهب المثالي:

وهو مذهب يؤكد أن أصل الأصول شيء واحد وهو الروح والعقل والذهن، أي يسمى بالكائنات العاقلة، أما بقية العالم الجسماني فإنما هو امتثالات في العقول الكائنات العاقلة، ولا يناظرها في الخارج أي موضوع[27]، وقال بهذا المذهب أفلاطون عند المتقدمين، واسبينوزا، ولبنيز، وبركلي، وفختي، وهيلج، وبرجسنون من المتأخرين، كما تلتقي أفكار الصوفية ورجال الباطن بهؤلاء التصوريين وإن بدا خلاف الحال والمقال[28]، ويقال في هذا المذهب ما قيل في سابقه من

علاقته بالدين، فالاعتراف بوجود عالم ما وراء الطبيعة، ووجود الروح هو الأساس الذي يبنى عليه وجود الإله تعالى.

3- المذهب المادي:

وهو المذهب الوحيد الذي يمكن أن يحدث نتائج الإلحاد واللادينية، ويرى أنصاره أن أصل الأصول واحد لكنه ليس الروح بل المادة، وأنه لا يتوقف وجودها على وجود شيء سواها [29]، وأن العقل والأحاسيس المختلفة وكل ما يصنف على أنه فعل الروح ليس إلا انعكاسا للمادة[30]، في اجتماع وتركيب وتعامل ذراتها، وهي أزلية غير مخلوقة، قوتها وطاقتها كلتاهما واحدة لا يمكن تجزئتها، فالمادة هي أم الكون التي تتولد من بطنها جميع النتائج، وهي تملك وجودا مستقلا مستغني عن أي وجود خارجي، ونظام العمل المرتبط بالمادة هو الطبيعة وقوانينها[31].

فلا حاجة وكل أجزاء الكون تربطها قوانين طبيعية واضحة، لأي افتراض قديم بأن وراء تلك الظواهر قوة إلهية، فالإنسان كان قد افترض في حالة جهله أن الإله هو الذي يُدِيرُ كل شيء في الكون، لأنه لم يكن لديه من الاكتشافات العلمية ما يبيِّنُ له نظام الأسباب، وأن وراء كل علة معلولا ضرورةً عن طريق التجربة، وأن وراء تلك الظواهر قوانين كبرى هي قانون الطبيعة، فلا ضرورة للإيمان بوجود هذا الإله، ولا ضرورة لهذا الافتراض، قال هكسلي مبرهنا على الكلام السابق: "إذا كانت الوقائع نتيجة لعلل طبيعية، فهي بالطبع ليست نتيجة لعلل ما فوق الطبيعة" وما دامت العلل ما فوق الطبيعة غير موجودة، فلا داعي لنسبة الأشياء إليها، وقال كانط واثقاً: "إيتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف يُخلَقُ الكون منها"[32].

وحين النظر إلى الجانب التاريخي للمذهب المادي، نجد أنه قديم جدا، فقد قال به ديموقراتيس، وتبعه أبيقور وليوكريتس في الماضي، وأحياه برونو وفسندي في القرنين السادس والسابع عشر[33]، وظهر بشكل بارز عند فلاسفة المدرسة الفرنسية من أمثال هولباخ وهلفتيوس[34].

ويرى الندوي أن الماديين يكابرون في أقوالهم، وأنها تحمل في طياتها مغالطات، فهم بقولهم هذا في الحقيقة لا ينفكون عن الغيب مكرهين، بدليل أنه لا يستطيع أي عالم مادي أن يتحرك خطوة دون استخدام مصطلحات كالقوة وقانون الطبيعة والمادة؟ ولكن هل يستطيعون بعقولهم أن يخبرونا ما هي حقيقة المادة والقوة والطاقة؟ وعلى سبيل المثال من أقوالهم رد الظواهر إلى العلة الأقصى، وهي قانون الطبيعة الذي يعتبرونه الكنه الأصيل لحوادث الكون، والواقع أن

هاتين الكلمتين لا تدلان إلا على اسم جمعي لتجارب ومشاهد مختلفة لنوع واحد، وهي تلازم وضرورة حدوث ظواهر معينة عند شروط معينة، لكن هل يدلنا قانون الطبيعة عن سبب الحدوث، وسر اللزوم والوجوب المحاط بالكتمان.

إنها في الحقيقة مصطلحات مختلفة للتعبير عن العلة المجهولة، للحوادث والظواهر المعروفة التي يعجز عن شرح حقيقتها المعنوية أي فيلسوف، فهم يخرون لآلهة يصنعونها بعقولهم، هي الطاقة الجاذبية والطبيعة وقانونها، وهم لا يستطيعون أن يبينوا حقيقتها ومصدرها، تماما كما يجهل أي رجل دين مكان الخالق ووصفه، فكلاهما يعتقد ويؤمن بعلل مجهولة للكون[35].

4- مذهب اللاأدرية:

يرى الندوي أن حقيقة مذهب اللاأدرية قائمة على الاعتراف بعدم العلم، وقد كان في القديم قائماً على الشك المطلق، وتولى إحياءه في العصر الحديث هيوم وكانط وهكسلي وغيرهم، وهو اتجاه يقرر أن التحقيقات العلمية، والتجارب الاستقرائية، والاستدلال العقلي، الذين يُتَوصَّلُ بهم إلى إثبات مسائل العلوم الطبيعية والاكتشافات المختلفة بشكل دقيق؛ نجدها عاجزة عن الوصول إلى حقائق الأشياء، وكل ما تعلق بما وراء الطبيعة إثباتا أو نفيا[36].

يقول اللاأدريون إن الأمور التي تقع خارج الحوادث المحسوسة أو ظواهر الأشياء لا تهمهم نفيا ولا إثباتا، ولا علاقة لهم بها، ويتمسك الندوي بموقفهم هذا ويرى أن هذا التبريء نفسه يعتبر دليلا على اعترافهم بالأعيان والحقائق، فالاعتراف بالظواهر هو تسليم بوجود بواطن، فالظاهر دون باطن مستحيل التصور، ففلسفة اللاأدرية تختلف كليا عن الإلحاد، وإن لم تعبر عن ذلك، لكنها تعترف بوجود قوة كامنة، رغم أنها غير معلومة ومستحيلة العلم، وهي صدى تلك الأحاسيس والعواطف التي تعتبر منبع ومرتكز كل الأديان[37].

وتحليل الندوي لمواقف اللاأدرية والمادية ينم عن فهم عميق للفلسفة، لا يقف عند ظاهر المذهب وتصريحات أعلامه، بقدر ما يُفَكِكُ مآلات رأيهم، ويعرض لها دراسةً ونقداً، فالماديون اختبئوا وراء مصطلحات وقوانين كلية يَرُدُّون إليها ما لا يجدون له تفسيرا، وما لم تتمكن عقولهم من استيعابه، أما اللاأدريون فقد تواروا باختيارهم اللاإجابة سبيلا للإجابة، فكان عدم إجابتهم إجابة بوجود بواطن وأمور خافية عن العقول.

ويخلص الندوي بعد عرضه لمختلف المذاهب الفلسفية، إلى أنه ورغم اعتبارها في هذا العصر أكثر المواهب قبولا، لا تستطيع بحال من الأحوال أن تنافس الدين، وهو ما أكده أبو حامد

الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة من أن الأمور الغيبية مصدرها النبوة، فالعقول البشرية عاجزة عن بلوغها[38]، ومكمن داء الفلاسفة أن أكثر براهينهم في الطبيعيات والإلهيات مبني على تصورهم بقدر ما وجوده وعقلوه، أما ما خرج عن مألوفهم فيقيِّدون استحالته[39].

ولعل الفلاسفة معذورون في شغفهم بالبحث عن الحقائق، لمن غابت عنهم نصوص الوحي، ذلك أن الإنسان بفطرته يحاول معرفة الأسباب والأسرار في الطبيعة وفي ما وراءها، أما في بيئتنا وقد من الله علينا بالهدي البيِّن في تلك المسائل، فإن أي جهود يعبر تعديا للعقول عن مجال تفعيلها وإثمارها، وتبديلا لمقدس بمكدس[40]، فالجهد الإنساني عرضة للخطأ في مجال مقدس متعلق بذات الله وصفاته وبمختلف الغيبيات الأخرى، مما يعد خطورة كبيرة، والحكمة تقتضي التسليم الكامل لنصوص الوحي[41].

وكان للتراث الفلسفي عموماً الأثر الملحوظ في الفكر الإسلامي، فتبني بعض الفلاسفة الإسلاميين المشائين منهج الموائمة والتوفيق بين الفلسفة والدين كأمثال الكندي والفارابي، ومال البعض إلى الدمج الكامل بينهما كابن سينا، ورأى كثير من العلماء أن الجوانب الفلسفية الميتافيزيقية خطر على العقائد الإسلامية فانبروا إليها دفاعا عن الدين بالحجج العقلية فيما سمي بعلم الكلام[42]، فكانت تجربة لها وعليها، وفي ما يلي نتناول موقف الندوي من علم الكلام باعتباره جهدا عقليا، فما الحدود التي يرى أن للعقل فيها دورا تجاه النقل؟

سابعا. الدين وعلم الكلام:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي أن الفلاسفة والحكماء لم يلحقوا بالدين الضرر الذي لحقه بسبب من سماهم الأعداء الحقيقيين، وهم أصدقاؤه الجهلاء من المتكلمين المسلمين، إذ يستحق الجزء الأكبر من إرثهم أن يحرق أو يحفظ في المتحف للعبرة والدرس، فلم تضيّع الأمة جهدها ووقتها بمثل ما ضيّعته في تلك الفلسفة الكلامية الضائعة[43].

أثَّر الندوي بموقفه هذا في تصور مجموعة من العلماء، من أبرزهم الشيخ أبو الحسن الندوي باعترافه حين قال: لقد كان التصور الذي اقتبسته من كتاب: الدين والعلوم العقلية؛ للشيخ عبد الباري الندوي دائما ما يرشدني بما إستفدته من تعيين حدود الفلسفة والعقل والنقل والتجربة[44]، وقد سمى الشيخ أبو الحسن الندوي جهود المتكلمين بـ "الفلسفة الدينية"، وهو علمٌ حلل ودقق هذه المسائل الإلهية وقضايا ما بعد الطبيعة عن طريق الأدلة العقلية، وأنها في معرض الرد على الفلاسفة وقعت في تدقيقات وتقعيرات هي سمة أساسية للفلسفة اليونانية، وان اختلفوا في

التتائج والغايات[45].

موقف الشيخ عبد الباري الندوي الشديد مؤسسٌ على ما يراه من خطورة آثار علم الكلام على الدين، ويضرب لذلك مثالا، بأن المؤمن الحق إذا رسخ الإيمان في قلبه وتمكن منه، أثمر ذلك الإيمان واليقين تعظيما وإجلالا للخالق، ورغبة ورهبه تجاهه، قال تعالى:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[46]، فهل يستطيع الإله الذي يُثبَتُ وجوده بمقدمات منطقية، أن يحدث هذا التأثير ؟ وهل تخشع القلوب وتلين وتقشعر خوفا وشوقا وتعظيما، بذكر واجب الوجود الذي يثبته أرسطو وابن سينا والمتكلمون بفلسفتهم وكلامهم؟ وهل يبقى في القلب من سعة لوجل وخشية يحدثها ذكر الله وقراءة القرآن، لمن يطالع كتبهم؟ فإذا كان الحال كذلك، فإنه لا محالة أن من أشد أعداء الدين وأخطرهم هم المتكلمون من المسلمين[47].

ورأي الندوي هذا فيه جانب من التجاوز في حق جهود عظيمة بذلها العلماء في الدفاع عن الدين، فجوهر علم الكلام هو الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين عن العقائد الصحيحة[48]، فما يجوز في معرض العلاج والدفاع قد لا يستسيغه من لا يستحضر السياق التاريخي، والإكراه الواقعي الذي كانوا يعيشونه، في الذود عن حمى الدين بما ورد من شبهات فلسفية قائمة على حجج عقلية، وهذا ما عبر عنه الإمام أبو حامد الغزالي تعبيرً العالمِ والخبيرِ بعلم الكلام، وبشكلٍ دقيقٍ وفي غايةِ الإنصافِ حين تكلم عن تحصيلِهِ لَهُ: " ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصَّلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير واف بمقصودي وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش المبتدعة"[49]، وتبعه ببيان حكمه على علم الكلام في كتابه المنقذ: بأن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل[50]، فلا يجب أن يخلو كل بلد من قائم بهذا العلم حتى يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة، مما يتوجب تدريسه للخواص المتدبين لهذا الأمر، لا أن يدرس على العموم كتدريس الفقه والتفسير، فإن علم الكلام كالدواء، أما تدريس الفقه مثل الغذاء، وكُلٌ يؤخذ بقدره[51].

ويرى الشيخ البوطبي في كتابه المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة أن علماء المسلمين قد سلكوا في مقابلة التيارات الفكرية الوافدةِ مسالكَ متعددةً أبرزها؛ استثارة نوازع الفطرة الأصلية في كيان الإنسان ببذل الجهد في إزالة الحواجز والحواجب عن الإيمان المطبوع في النفس الإنسانية،

وسلك بعضهم مسلك تحكيم موازين العقل والمنطق وما اجتمعت عليه العقول مما يدعو القرآن إلى استخدامه لمواجهة الجاحدين، وسلك آخرون مسلك الفلاسفة الإسلاميين باعتماد منهج الفلاسفة في القبول أو المحاجة والرد، ويرى البوطي أنه لا مجال للمفاضلة بين الأساليب في معرض الدفاع عن الدين[52]، وأن المسالك كلها خاضعة لمنهج القرآن في الدعوة إلى الله وتجلية عقائد الإسلام، بشرط أن يستعمل كل منها في المكان المناسب وطبقا للحاجة الداعية، فاستثارة الفطرة حيث تجثم شبهة عقلية أو فلسفية في العقل تثقله عن التحرك سعيا وراء الفطرة، عبث لا يأتي بطائل، واصطناع المعارك العقلية التي لا وجود لها، تنطع وتضييع للوقت، فالأمر يؤخذ بقدره دون تشدق أو تنطع أو تقصير وإهمال[53].

أما ما قصده الندوي من وجهة نظري؛ ينطلق من المحاذير المتعلقة بالآثار الجانبية لعلم الكلام، فهو موافقٌ لما ذكره صاحب الإحياء أيضا، في كون علم الكلام لا يُوصِلُ إلى الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يُتَرجِمُهَا ظاهر الألفاظِ في العقيدة، فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات، والإقبال بالكلية على الله تعالى[54]، وهو أمر طبيعيٌ جداً ومسلمٌ به من هذه الزاوية، فما يهدف إليه علم الكلام المدافع عن الدين بالحجج العقلية، التي تعتبر جُهداً بشريا قابلا للخطأ، بخلاف ما يهدف إليه المؤمن من ارتقاءٍ في سلم الإيمان والقرب من الله تعالى. فيكون الندوي قد جانب الصواب في حُكمِهِ المطلق، كونه حَاكَمَهُم إلى غير أهدافِهِم، ونَظَرَ إلى ما يعتبر آثاراً سلبيةً لجهودهم مع إغفاله الجانب الإيجابي. ومحقاً في نقده إذا أُعتُبِرَ هذا العلم الحالة الطبيعية التي يتقى بها العلم بالغيبيات.

ثامنا. مجال وحدود علاقة العقل بالدين:

يبين الندوي إن العقل لا يستطيع أن يثبت الدين كما لا يستطيع إبطاله، وهذا لا يشكل عارا وعيبا في الدين، وإنما هو دليل على استقراره وتميزه، فالعقل الإنساني لا يعقل عقدته إذ يتفاوت ويختلف وتتعدد مواقفه ونظرته للأشياء، بحيث يستحيل إجماع العقول والآراء حتى في مسألة بسيطة. فالعقل نفسه دائم التغير، حتى أن جيلا واحدا من العلماء يختلف اختلافا شديدا، بل إن شخصا واحدا يغير آراءه وأفكاره باختلاف الأزمان والأحوال والظروف، فإذا كان الدين يدعي مطابقة هذا المعيار المتزلزل والمتناقض وغير الدائم، فإنه إذا لا يثبت حقيقة دائمة وثابتة، ويصبح الدين ألعوبة من الألاعيب بمثل هذه التطبيقات والتسويات القسرية[55].

ويوضح الندوي موقفه بشكل أدق، حين يقسم الدين إلى مجالين، كل مجال له علاقة خاصة

بالعقل، نتعرض إليهما في الآتي:

1- علاقة العقل بالعقيدة الدينية:

يذهب الندوي إلى أن الإيمان بالله والبعث وغيرها من المسائل في المعتقدات الغيبية، لا يستطيع العقل أن يثبتها أو يبطلها، ولا يملك أدنى سلطة لذلك، فالدين يقوم على الاعتقاد والإيمان الذي ينبع من الأحاسيس والعواطف الطبيعية المختلفة التي يشعر بها الإنسان فمادام في الإنسان الحب والهيبة والحيرة والبؤس والغضب والإجلال والجمال وغيرها من العواطف، أي مادام الإنسان إنسانا فلا سبيل أمامه لتجنب الدين، فالدين قائم على أساس متين يفوق العقل متانة واستقرارا بحكم قواعده ومبادئه[56]، فحقائق الدين مطلقة بذاتها غير خاضعة للتعقيب الإنساني –ودور الإنسان فيها هو الاستجلاء فحسب– وصفة الإطلاق التي يتصف بها النقل مستمدة من العلم الإلهي المطلق بكل الغيوب[57].

وكلام الندوي يعلي من قيمة المشاعر الإنسانية في تلمس التوحيد الذي فُطِرَ عليه الإنسان، والمركوز في أعماقه، وهذا لا يحمل على نفي أي دور للعقل في تلقي الحقائق الإيمانية، وتمييز خير العقائد التي تستحق وتناسب الإنسان[58]، فالعقل مناط التكليف، وهو آلة الاستيعاب والفهم والتنزيل الواقعي، ويرى فريق من العلماء أن أول الواجبات على الإنسان النظر الذي يتم به كمعرفة الله تعالى وتلقي التكليف[59]، إلا أن الندوي أنكر المبالغة والاستغراق في بحث العقل عن الإثبات والدلائل العقلية كمعيار للإثبات في المسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة، مما لا مجال للعقل أن يحيط به.

ويدلل الندوي على رأيه، بأن هذا هو السر الذي جعل الكتب الدينية لا تختار الخطاب بالحجج المنطقية، وطريق الاستدلال الفلسفي إلا نادرا، فإنها تركز كليا على الأحاسيس والعواطف التي تتولد منها، بل إنها تؤكد وتحث من حين لآخر على عدم تناول المسائل الإلهية والخوض فيها بالتفكير العقلي، قال تعالى:﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[60]، وحين سَأَلَ الناسُ عن الروح، لفت القرآن الكريم انتباههم بقوله:﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[61]، فذكرهم بمحدودية نَظَرِهم العقلي[62].

فالأسلوب القرآني في الاستدلال عند الندوي يصرف الانتباه لغرس العقيدة الإلهية، مما يصدر عن حيرة للعقل الإنساني، من خلال دعوته للنظر في السموات والأرض، والنفس، وفي

آثار السابقين للاعتبار، فينادي الإنسان من خلال شعوره بعظمة الخلق التي تفوق قدراته فهما واستيعابا؛ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[63]، وهو نداء يصور ما حصل من ثمار التعظيم والإجلال كثمرة للنظر والتأمل فيما حوله من آيات كونية[64].

وظاهِرُ موقف الندوي هو التأثر الشديد بالواقع الذي كان يعيشه، من ولوع الكثيرين وافتتانهم بالعلم والفلسفة، مما جعله أحيانا يتخذ موقفا مقابلا بالكلية، يبرُزُ فيه أثر رَدّ فعلهِ تجاه تلك النزعة العقلية، فقوله أن الكتب الدينية لا تختار الحجج العقلية إلا نادرا لا يسلم به، فقد ساق القرآن الكريم العديد من الدلائل العقلية، والبراهين المنطقية، وكثيرا ما خاطب الإنسان بالاستفهام الاستنكاري لغفلته عن استعمال عقله، بقوله تعالى :﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[65]، وقوله عز من قائل:﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[66]، وقولهﷻ في سورة يوسف:﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[67]، وقوله أيضا:﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[68]، كما كان العقل محل إشادة وتنويه في القرآن العظيم بصيغ مختلفة ومتكررة، بكلمة:﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ و﴿أُولِي النُّهَى ﴾؛ أي أصحاب العقول[69]، وهي دعوة صريحة لإعمال العقول تدبراً في آيات الأنفس والآفاق، وفي آيات كتاب الله العزيز[70].

كما ينكرُ الندوي على المتكلمين وقوعهم في خداع عقولهم، حين يصرفون جهودهم واهتمامهم، عن مقاصد تلك الآيات، إلى إتباع منهجهم في التناول والدراسة، بتأليف الكتب حول علم الهيئة انطلاقا من قوله تعالى:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[71]، وإلى تحصيل علم النفس انطلاقاً من قوله تعالى:﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[72]، والى دراسة التاريخ والتحقيق في آثاره من قوله:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[73]، والحقيقة أن القرآن لا يعارض تحصيل هذه العلوم وتعلمها وتعليمها، ولكن ليس من وظيفته أن يؤيدهما أو يدافع عنهما، بل الهدف هو خَلقُ الاعتقادِ والإيمانِ الإجمالي بعظمة وغرابة هذه الأمور، لإيقاظ الإنسان من غفلته، ودعوته للإيمان واليقين، والخوف والرجاء، وشعوره بالافتقار والحاجة والرغبة لله رب العالمين، فالدين إذاً يناشد إلى أقصى حد العواطف والعقل العملي[74]، بدلا من اللجوء إلى الاستدلال الميتافيزيقي ومخاطبة العقل النظري[75].

والخلاصة أن الندوي يذهب إلى أن الجانب العقائدي الغيبي، لا قبل للإنسان بالنظر فيه، وهو خارج عن دائرة قدرتهِ المحدودة، وقد عبر عن هذا المعنى بشكل بليغ العالم باسكال بقوله: إن العقل يستطيع بما لديه من أفكار فطرية أولية أن يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادئ الأولى، ومنها وجود الله تعالى، أما ما وراء ذلك من أسرار وتفاصيل الوجود والخلق والخالق الغيبية، فنحن عاجزون عن إدراك كنهها، لأن حواسنا لا تدرك غايات الأشياء، فالصوت المرتفع يصم، والنور المفرط يغشي الأبصار، والبعد أو القرب يمنعنا من الرؤية، وعقولنا تعجز وترتبك عند التفكير في الغايات، فعلى الإنسان أن يعيَّ ضآلته بالنسبة للعالم، وما وراءه من عوالم، وعلينا أن نستيقظ و"نعلم إذاً قَدْرَنَا فإننا بعض الشيء، ولسنا كل شيء، ومقام عقلنا في المعقولات، كمقام جسمنا في الامتداد"[76].

حدد الندوي للعقل حدودا دقيقة لا يجب أن يتجاوزها، فهل يعتبر هذا عيبا في العقل وإنقاصا من قيمته وأحكامه؟ يجيبنا ابن خلدون في مقدمته إجابة شافية بأن ذلك ليس بقادح في العقل، فالعقل ميزان صحيح، وأحكامه يقينية لا كذب فيها، لكن لا تطمع بأن تزن به أمور التوحيد، والنبوة، والآخرة، وحقائق الصفات الإلهية وغيرها من الغيبيات، وكل ما وراء طَورِهِ، لأنك حينها تكون كمن يريد أن يزن بميزان الذهب الجبال، فالميزان أحكامه صادقة لكن في حدوده، فالعقل يقف عند حدوده وليس له أن يحيط بالله وصفاته، فإن الإنسان ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه، فتفطن من أن تقدم العقل عن النقل في أمثال هذه القضايا فتقع في الغلط وقصور الفهم[77].

2- علاقة العقل بالجانب العملي في الدين:

يشكل الجانب العملي المتضمن للعبادات والمعاملات والأخلاق جزءا أساسيا من كل الأديان، وهي فرع قائم عن العقيدة، وتَعبِيرٌ عَمَلِيٌ مُتَرجِمٌ لِصِدقِ الخضوع والاستسلام لله رب العالمين، وهو جانب في غاية الأهمية في الدين، فالأخلاق مثلا هي من المقاصد والأهداف الحقيقية للمشرع، لذا وجدنا القرآن لا يفصل بين الإيمان والعمل الصالح، تماما كما أنه لا فصام بين العقيدة والعبادة بمفهومها العام.

والعقل عند الندوي في هذا المجال له صلاحية الترجيح والتفضيل، في كل ما تعلق بمجال الأعمال وأسرار السلوك، ولكنه حتى في هذا المجال لا تعتبر أحكامه نهائية قطعية، فليس بالضرورة أن يستمر كل ما يبدو معارضا للعقل معارض له دائما[78].

وكلام الندوي السابق في غاية الدقة، ويعبر عن فهم محيط بكل متعلقات الاجتهاد البشري، فالعقل يتبوأ منزلة عظيمة في الدور المنوط به، في التنزيل الواقعي للوحي الإلهي المتعالي على الواقع المادي لحياة الإنسان، مما يقتضي فهما واستيعابا للوحي المجرد من جهة، وتكميلا لما تركه من التفاصيل بحسب المتغيرات والمتقلبات، ليجد النقل طريقه للتنفيذ العملي، فالعقل الإنساني وسيلة مبلغة للحق في مجال الكشف والتقدير والمعايرة، إلا أن وصول العقل إلى الحق ليس ضروريا، فهو ليس وسيلة كشف مباشر كما هو حال الدين، بل هو رهين شروط وقيود وحدود في طريق النظر والفكر، حال تتبُّعه لها يصل بالضرورة إلى الحق[79].

ورغم هذا الجهد المحمود للعقل فهو يبقى جهدا منطلقا من معطيات الحس، محدود بحدود المادة والزمان والمكان، مما يجعل محصول العقول – في كل حالها – موصلاً للحق النسبي والخير النسبي، فالمعرفة العقلية في مجال الأشياء لا يتعدى نطاقها حدود الظواهر والآثار، والعقل البشري محكوم بظروف المادة وهو مجال حركته ومنطلق إبداعه، وهذا يبين لنا أنه وإن كان قادرا على تجاوز المادة إلى ما وراءها من حقائق، وقادرا على إصابة الحقيقة في تقدير السلوك الإنساني، إلا أنها قدرةٌ محدودةٌ لا يمكن أن تصيب الحق المطلق[80].

خاتمة

بعد عرضنا لوجهة نظر الشيخ عبد الباري الندوي حول طبيعة العلاقة بين العقل والنقل، نوجز أهم ما توصل إليه، وما أبرز مؤاخذتنا على رأيه، وما هي أهم الفوائد المستفادة من طرحه، فيما يأتي:

1- يرى الندوي أنه على الإنسانية توفير جهدها، من خلال ترشيد قواها، بإعمال العقل في مجال الطبيعيات الواسع، وفي المجال العملي المتعلق بالدين، ببيان أسرار أعمال الشريعة والبحث عنها، وبما يخدم الإنسان في مختلف مناحي حياته، ويحقق ثمار جهده وأهدافه، بعيدا عن عالم الغيب، الذي لا قبل للعقل بالوصول إليه إلا بالوحي.

2- قسم الندوي الجهد العقلي في البحث عن المعارف والحقائق إلى مجالين أساسين هما: العلم والفلسفة، وحدَّد موقفه بناء على هذا التقسيم الدقيق، الشامل لمعياري المنهج والموضوع.

3- أبدع الندوي فيما ذهب إليه من تحييد العلم عن دائرة الخلاف، فقد بين أن فكرة وجود صراع بين الدين والعلم لا أساس لها، ويرى أن الفكرة ذات أصل واقعي، ناتجٌ عن الصراع الذي حدث في أوروبا بين علماء الدين ورجال العلم، والذي ولّدَ فَهماً مَغلوطاً، فالحقيقة أن لكلٍ

من الدين والعلم مجالاً وموضوعاً خاصاً، فلا تداخل أو تعارض بينهما.

4- أن العلاقة بين الدين والفلسفة محتملة الصدام، لأن لكليهما موضوعاً واحداً، ويختلفان في المنهج المتبع والهدف، فالفلسفة تقوم على ملكات وقدرات العقل كوسيلة للبحث، وتهدف إلى إرواء غليل العقل ببحث ما هو فوق الفهم، في حين ينتهج الدين أسلوب التلقي وخطاب المشاعر، ويستهدف الدين تحقيق الإيمان والاعتقاد بما لا يحيط به العقل أو يدركه.

5- أن مختلف المذاهب الفلسفية ليست في تعارض مع الدين، عدا المذهب المادي الذي يعتبر معاديا للدين بشكل مباشر، لكن في الحقيقة هو يختبئ وراء إطلاق اصطلاحي، لا يقدم إجابات واضحة عن حقيقتها ومصدرها، كالطاقة والمادة وقانون الطبيعة... تلتقي في منتهاها لما أقره الدين من عجز عن إدراكها.

6- فَقَدَ مذهب المادية قيمته بعد أن هَزَّ بنيانه المعركة الأساسية حول ماهية المادة نفسها، وغدا المذهب كليا محل شك من حيث الوجود أصلا.

7- محاولة مذهب اللاأدرية التهرب عن الإجابة، واعتزالهم مباحث ما وراء الطبيعة، بإقرارهم بعدم العلم؛ لا يعني أبدا عدم الوجود، بل أن عدم العلم بما يتعلق بما وراء الظواهر ينم عن الاعتقاد بوجود بواطن مخفية، أقروا بها أم أنكروها.

8- يرى الندوي أن المتكلمين من المسلمين أخطأوا حين فسحوا المجال لأنفسهم للتفكر بعقولهم في مجال لا مكان فيه للعقل، مما ولد آثارا سلبية على التصورات والمفاهيم، وعلى مشاعر المؤمن تجاه خالقه، وصار الإله نتيجة لدور علم الكلام ألعوبة لتطرف العقل وتهوره.

9- رأي الندوي المتعلق بعلم الكلام؛ فيه جانب من التجاوز في حق جهود عظيمة بذلها العلماء في الدفاع عن الدين، وما يجوز في معرض العلاج والدفاع قد لا يستسيغه من لا يستحضر السياق التاريخي، والإكراه الواقعي الذي كانوا يعيشونه، في الذود عن حمى الدين بما ورد من شبهات فلسفية قائمة على حجج عقلية.

10- يذهب الندوي إلى أن الإيمان بالله والبعث وغيرها من المسائل في المعتقدات الغيبية، لا يستطيع العقل أن يثبتها أو يبطلها، ولا يملك أدنى سلطة لذلك، فالدين قائم على أساس متين يفوق العقل متانة واستقرارا بحكم قواعده ومبادئه.

11- يشكل الجانب العملي المتضمن للعبادات والمعاملات والأخلاق جزءا أساسيا من كل الأديان، للعقل عند الندوي في هذا المجال له صلاحية الترجيح والتفضيل، في كل ما تعلق

بمجال الأعمال وأسرار السلوك، ولكنه حتى في هذا المجال لا تعتبر أحكامه نهائية قطعية، فليس بالضرورة أن يستمر كل ما يبدو معارضا للعقل معارض له دائما.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن خلدون: عبد الرحمن، المقدمة (ط:1؛ دار القلم: تونس، 1984م).

2- الإيجي: عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين، كتاب المواقف، تحقيق : عبد الرحمن عميرة (ط:1 ؛ دار الجيل: بيروت–لبنان، 1997م).

3- بدوي: عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة (ط:1؛ المؤسسة العربية لدراسات والنشر: بيروت–لبنان، 1984م).

4- بن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير (دط؛ الدار التونسية للنشر: تونس، 1984 هـ).

5- بن فارس: أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دط؛ دار الفكر: دمشق–سوريا، 1979م).

6- بن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب (ط:3، دار صادر – بيروت، 1414ه).

7- البوطي: محمد سعيد رمضان، المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة (ط: 5؛ دار الفكر: دمشق–سوريا، 2015م).

8- جارودي: روجيه، ماهي المادية؟، ترجمة: محمد عيتاني (دط؛ دار المعجم العربي: بيروت–لبنان، دت).

9- الجسر: نديم، قصة الإيمان–بين الفلسفة والعلم والإيمان (ط:3؛ مطابع المكتب الإسلامي: بيروت–لبنان، 1969م).

10- الجوهري: إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (ط:4؛ دار العلم للملايين: بيروت–لبنان، 1987م.

11- حلمي: مصطفى، الإسلام والمذاهب الفلسفية (ط:1 ؛ دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، 2005م).

12- خان: وحيد الدين، الدين في مواجهة العلم، ترجمة: ظفر الإسلام خان (ط:4؛ دار النفائس: بيروت–لبنان، 1987م).

13- زينب: عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه –الصفحة السوداء للكنيسة (ط:1 ؛ دار الكتاب العربي: دمشق–سوريا، 2004م).

14- صليبا: جميل، المعجم الفلسفي(دط؛ دار الكتاب اللبناني: بيروت- لبنان، 1982م) .
15- الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (ط:1؛ مؤسسة الرسالة: القاهرة-مصر، 2000م).
16- عبد الحليم: محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام (دط؛ دار الكتاب اللبناني: بيروت-لبنان، 1958م).
17- عوض: رمسيس، الإلحاد في الغرب (ط:1؛ سينا للنشر: القاهرة-مصر، والانتشار العربي: بيروت-لبنان، 1997م).
18- الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد، إحياء علوم الدين (دط؛ دار المعرفة: بيروت-لبنان، دت).
19- الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد، المنقذ من الضلال (دط؛ دار الكتب الحديثة: القاهرة-مصر، دت).
20- الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد، تهافت الفلاسفة، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا (ط:6؛ دار المعارف: القاهرة – مصر، دت).
21- القرضاوي: يوسف، العقل والعلم في القرآن الكريم (ط:1؛ مكتبة وهبة: القاهرة-مصر، 1996م).
22- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة (ط:1؛ المكتبة العصرية: بيروت-لبنان، 2010م).
23- محمد: فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ط: ؛ دار الحديث : القاهرة – مصر، 1364ه).
24- موسوعة العقائد الإسلامية (ط3؛ دار الحديث للطباعة والنشر: قم-إيران، 1429ه).
25- النجار: عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل (ط:3 ؛ الدار العربية للعلوم: بيروت-لبنان، 2005م).
26- الندوي : أبو الحسن علي، بين الدين والمدنية (ط:5؛ مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان، 1987م).
27- الندوي: عبد الباري، الدين والقوى العقلية، ترجمة: واضح رشيد الندوي (ط:1؛ دار وحي القلم: دمشق-سوريا، 2003م).

الندوي: عبد الباري، بين التصوف والحياة، ترجمة: محمد الرابع بن رشيد الحسني الندوي (ط:1؛ مكتبة دار الفتح: دمشق-سوريا، 1963م).

ـ الهوامش:

1 الشيخ عبد الباري الندوي (ت1976م) : من خريجي ندوة العلماء بالهند، ضليع بمعرفة علوم الفلسفة القديمة والحديثة وعلم الكلام والتصوف، وباللغة الأردية والفارسية والإنجليزية، دَرَّسَ بكلية دكن في بونا ثم كلية كجرات بأحمد آباد ثم رئيسا دائما لقسم الفلسفة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد، من أبرز شيوخه العلامة شبلي النعماني وشير علي الحيدرآبادي، ألف مجموعة من الكتب من أبرزها: الدين والعلم؛ والدين والحياة؛ والدين والقوى العقلية؛ وبين التصوف والحياة؛ والأمة الإسلامية تعيش لصفاتها وخصائصها؛ رجال الفكر والدعوة في الإسلام. وقد وصفت جهوده العلمية بالتميز والدقة ومعاصرة التحديات الواقعية، وقال عنه الأمير حبيب الرحمن الشيرواني وزير الشؤون الدينية بحيدرآباد واصفا جهوده : "لقد أَسلَمَتِ الفلسفة على يديه"؛ انظر: عبد الباري الندوي، الدين والقوى العقلية، ترجمة: واضح رشيد الندوي (ط:1؛ دار وحي القلم: دمشق-سوريا، 2003م)، ص5-6 ؛ وانظر: عبد الباري الندوي، بين التصوف والحياة، ترجمة: محمد الرابع بن رشيد الحسني الندوي (ط:1؛ مكتبة دار الفتح: دمشق-سوريا، 1963م)، ص14.

2 قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي واصفا قدراته بأنه:"استطاع بذكائه، وصلاحيته للتمييز أن يدرك الحدود الفاصلة للفلسفة والعقل، والفارق بين الفلسفة والعلم الذي كان خفيا وحتى على كبار المثقفين والعلماء في ذلك العصر، فكانوا يخلطون بينهما"؛ انظر: المرجع نفسه، ص5-6.

3 إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (ط:4؛ دار العلم للملايين: بيروت-لبنان، 1987م)، ج5، ص1769.

4 أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دط؛ دار الفكر: دمشق-سوريا، 1979م)، ج4، ص69.

5 سورة البقرة: الآية 44.

6 محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (ط:1؛ مؤسسة الرسالة: القاهرة-مصر، 2000م)، ج1، ص10.

7 محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ط: ؛ دار الحديث : القاهرة – مصر، 1364هـ)، ص468.

8 أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دط؛ دار الفكر: دمشق-سوريا، 1979م)، ج5، ص463؛ وانظر: محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب (ط:3، دار صادر – بيروت، 1414ه)، ج11، ص674.

9 عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل (ط:3 ؛ الدار العربية للعلوم: بيروت-لبنان، 2005م)، ص72.

10 عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجي، كتاب المواقف، تحقيق : عبد الرحمن عميرة (ط:1 ؛ دار الجيل:

بيروت-لبنان، 1997م)، ج2، ص87.

11 محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين (دط؛ دار المعرفة: بيروت-لبنان، دت)، ج3، ص16.(بتصرف)

12 عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص68-69.

13 تنبيه: أذكر في كثير من الأحيان في هذا المقال من بدايته إلى نهايته، اسم الشيخ عبد الباري الندوي بلقبه اختصارا بـ" الندوي"، فلا يختلط الأمر على القارئ مع من اشتهر به وهو أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى، أو غيره من علماء ندوة العلماء، وحال ذكري لأحدهم سأذكر اسمه كاملا لأنه الاستثناء في هذا المقال.

14 انظر: كتاب الشيخ عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص12 وما بعدها.

15 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص12-14.

16 زينب عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه -الصفحة السوداء للكنيسة (ط:1 ؛ دار الكتاب العربي: دمشق-سوريا، 2004م)، ص81-82.

17 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص15-16.

18 وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ترجمة: ظفر الإسلام خان (ط:4؛ دار النفائس: بيروت-لبنان، 1987م)، ص64.

19 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص15-17.(بتصرف)، وانظر: وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص65-67.

20 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص19-21.

21 المرجع نفسه، ص22-23.

22 المرجع نفسه، ص24-25.

23 أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، (دط؛ دار الكتب الحديثة: القاهرة- مصر، دت)، ص182، 199.

24 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص25-26.

25 رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب (ط:1؛ سينا للنشر: القاهرة-مصر، والانتشار العربي: بيروت-لبنان، 1997م)، ص58.

26 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص29.

27 عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة (ط:1؛ المؤسسة العربية لدراسات والنشر: بيروت-لبنان، 1984م)، ج2، ص439.

28 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص30.

29 مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة (ط:1؛ المكتبة العصرية: بيروت-لبنان، 2010م)، ص2958.

30 روجيه جارودي، ما هي المادية؟، ترجمة: محمد عيتاني (دط؛ دار المعجم العربي: بيروت-لبنان، دت)، ص6.

31 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص31.

32 وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص64-65.

33 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص29-32.

34 رمسيس عوض، المرجع السابق، ص133، 138-139.
35 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص56-59.
36 المرجع نفسه، ص49-51.
37 المرجع نفسه، ص59-60.
38 أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا (ط:6؛ دار المعارف: القاهرة – مصر، دت)، ص154 ؛ وانظر:
39 أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، ص200.
40 يستعمل كثيرا هذا المصطلح أستاذنا الشيخ الدكتور عمار جيدل في محاضراته التي تلقيناها عنه خلال مشوارنا التعليمي؛ وهو أستاذ العقيدة والفرق الإسلامية ومقارنة الأديان كلية العلوم الإسلامية بالخروبة بجامعة الجزائر.
41 عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام (دط؛ دار الكتاب اللبناني: بيروت-لبنان، 1958م)، ص463.
42 مصطفى حلمي، الإسلام والمذاهب الفلسفية (ط:1 ؛ دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، 2005م)، ص128.
43 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص63.
44 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص7.
45 أبو الحسن علي الندوي، بين الدين والمدنية (ط:5؛ مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان، 1987م)، ص22-23.
46 سورة الأنفال: الآية 02.
47 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص69-70
48 ابن خلدون، المقدمة (ط:1؛ دار القلم: تونس، 1984م)، ص557.
49 أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال (دط؛ دار الكتب الحديثة: القاهرة- مصر، دت)، ص118.
50 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص97.
51 المرجع نفسه، ج1، ص99.(بتصرف)
52 محمد سعيد رمضان البوطي، المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة (ط: 5؛ دار الفكر: دمشق-سوريا، 2015م)، ص29-30.
53 المرجع نفسه، ص41.
54 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص99.
55 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص59، 61.
56 المرجع نفسه، ص53، 64.
57 عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص70.
58 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص70.
59 الإيجي، المرجع السابق، ج1، ص147.
60 سورة الأنعام: الآية 68.
61 سورة الإسراء: الآية 85.

62 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص64.
63 سورة آل عمران: الآية 191.
64 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص65.
65 سورة يونس : الآية 16 وفي ثلاث عشرة مرة ؛ انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ط: ؛ دار الحديث : القاهرة – مصر، 1364ه)، ص468.
66 سورة الأنبياء: الآية 10.
67 سورة يوسف: الآية 109.
68 سورة المؤمنون : الآية 80.
69 محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (دط؛ الدار التونسية للنشر: تونس، 1984 ه)، ج2، 145.
70 يوسف القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم (ط:1؛ مكتبة وهبة: القاهرة–مصر، 1996م)، ص22، 24، 26.
71 سورة البقرة: الآية 64.
72 سورة الذاريات: الآية 21.
73 سورة يوسف: الآية 109.
74 يطلق الفيلسوف "كانط" هذين المصطلحين: "العقل العملي والعقل النظري" على كل ما هو قبلي في الفكر، أي على الملكة العقلية المتعالية التي تتضمن مبادئ المعرفة القبلية المستقلة عن التجربة، فإذا نظرنا إلى العقل من جهة اشتماله على المبادئ القبلية للمدركات العلمية التي تولد فينا بعض المعاني المجردة كمعنى النفس والعالم والله، بهذا المعنى كان عقلا نظريا أو تأمليا، وإذا نظرت إليه من جهة اشتماله على المبادئ القبلية لقواعد الأخلاق التي تولد فينا مسلمات الأخلاق، وخلود النفس، ووجود الله كان من هذه الجهة عقلا عمليا، وهنالك من يرى أنّ العقل هو مبدأ الإدراك، ولا يوجد في هذا الصدد أيّ فارق بين العقل النظري والعقل العملي، وإنّما يكمن الفارق في الهدف؛ فإذا كان الهدف من إدراك الشيء هو معرفته لا العمل به، يُسمّى مبدأ الإدراك حينئذٍ بالعقل النظري، أمّا إذا كان الهدف من الإدراك هو العمل، فيسمّى مبدأ الإدراك عند ذاك بالعقل العملي؛ انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص89 ؛ وانظر: موسوعة العقائد الإسلامية (ط3؛ دار الحديث للطباعة والنشر: قم–إيران، 1429ه)، ج1، ص165.
75 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص63–68.
76 نديم الجسر، قصة الإيمان–بين الفلسفة والعلم والإيمان (ط:3؛ مطابع المكتب الإسلامي: بيروت–لبنان، 1969م)، ص131 ؛ وانظر: أبو الحسن علي الندوي، بين الدين والمدنية، ص23–24.
77 ابن خلدون، المقدمة (ط:1؛ دار القلم: تونس، 1984م)، ص559.(بتصرف)
78 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص69، 76.
79 عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص73–74.(بتصرف)
80 المرجع نفسه، ص74–77.

The Dialectic relationship between intellect and revelation according to Abdelbari Nadwi

Bey Ahmed Ameur*

Abstract

This article used to discuss the question of the relationship between intellect and revelation according to the scholar Abdul Bari Nadwi who dealt with that subject , in terms of the huge dispute between philosophers and thinkers .it is a significant topic that Abdul Bari Nadwi is concerned about , he responded to the challenges of his current time, in order to stand against of the modern trends which was influenced by rationality and scientific results that have been achieved in the last two centuries, he was totally oppose putting intellect in metaphysical field. My article stresses the importance of defining the relationship between the intellect and the revelation and both of their fields . Nadwi concluded that there is conflict between science and religion, he shows nature of the relationship between all thought schools and the religion , at the end , he achieved that each one of them has its field.

Key words : intellect, revelation, religion, philosophy, art of discussion.

* Institute of Islamic Sciences - University of El-oued - Algeria.